لماذا أنزل الله سبحانه وتعالى الأديان السماوية

لم يخلق الله تبارك وتعالى البشر عبثاً ولا باطلا ولا لهوا إنما خلقهم بالحق ولحكمة سامية نراها فى قوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » وفى قوله جل شأنه : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ، وأنكم إلينا لا ترجعون » :

فقد خلقهم سبحانه وتعالى ليعمروا الأرض ويعبدوا الله بذكره وتسبيحه وعبادته والامتثال لأوامره ونواهيه من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت واتباع طريق البر والحق والفضيلة واجتناب طريق الشر والباطل والرذيلة والانصراف إلى البناء والتعمير والإصلاح والابتعاد عن الهدم والتخريب والفساد .

وقد اعتبر الله تعالى وجود الإنسان القصير الصابر فى الحياة الدنيا ابتلاء لإخلاصه وامتحانا لإيمانه وميزانا لصلاحه وتقواه . وجعل الدنيا مزرعة للآخرة فمن كان صالحاً طيباً واتبع سبيل الله وأطاعه واتقاه كوفىء بجنات النعيم ، ومن كان فاسداً خبيثاً وسلك طريق الشيطان والشر عوقب بنار جهنم . قال الله تعالى : « هو الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا». وقال عز وجل: « من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثال ذرة شرا يره » .

ولكن الإنسان لا يستطيع وحده إذا تركه الله وشأنه أن يهتدى إلى طريق الله طريق العلم والإيمان والخير والحق والهدى فإنه يحتاج إلى دليل يرشده إلى الصراط المستقيم وإلى نور يضىء له الطريق. ولذلك أنزل الله سبحانه وتعالى الأديان السماوية وأرسل الرسل والأنبياء يحملون مشاعل الهداية وأنوار السماء الكشافة ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، قال الله تعالى: « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور». لذلك لا يحاسب الله عز وجل الناس الذين لم يبعث إليهم رسلا وأنبياء فقد قال تعالى: « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ». وأنزل الله تعالى الكتب السماوية وأرسل الرسل والأنبياء لهداية البشر وسعادتهم فى الدنيا والآخرة رحمة منه بهم وعطفاً عليهم كما قال عز وجل: « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ».

ويستحيل أن يدع الله تعالى وهو الغفور الرحيم واللطيف الخبير خلقه وعباده وشأنهم خشية أن يضلوا الطريق السوى ويضيعوا فى صحراء التيه والضلال كما أنه يستحيل أن يفرط الوالد فى أمر ولده كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه:

أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار؟

قالوا: لا والله. إن هذا لن يكون أبداً.

فأعلمهم النبي صلى الله عليه وسلم بأن الله سبحانه وتعالى أرحم بعباده من هذه الأم بولدها .

وقال تبارك وتعالى : « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم » (الزمر ٥٣) .

ويلاحظ أن الأديان السماوية لم تنزل دفعة واحدة فى وقت واحد إنما أنزلت فى فترات متباعدة من مسيرة الحياة البشرية لتتمشى مع تطور الحياة الإنسانية . ففى مرحلة الطفولة والصبا أنزل الله تعالى صحف إبراهيم وموسى والتوراة والزبور ، وفى مرحلة الشباب أنزل الإنجيل ، وفى الكهولة مرحلة النضج العقلى بعث الله رسوله الأمى محمدا بالهدى ودين الحق الإسلام الحنيف إلى الناس كافة كما قال جل شأنه : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » .

والإسلام الحنيف دين الإنسانية كلها نسخ ما سبقه من كتب وأديان سماوية واحتواها ويمتاز عليها بأنه يخاطب العقل والقلب ويجمع بين الدنيا والآخرة ويخدم الروح والمادة وينفرد عنها بشموله وعموميته فهو أنزل لجميع البشر على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وجنسياتهم كما قال الله تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا » .

لذلك كان الإسلام الحنيف دين الله الأكمل الأمثل الذى يجب على كل إنسان اعتناقه والسير على نهجه والعمل به كما قال الله عز وجل : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » .

وقد أنزل من السماء ليجمع البشر جميعاً فى ظل الله على بساط الأخوة الإنسانية ليتعارفوا ويتعاونوا كما قال جل شأنه : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

والإسلام الحنيف يساوى بين الناس جميعاً ولا يميز بينهم إلا على أساس من العلم والإيمان والتقوى كما قال الله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وقال جل شأنه : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » . وقال رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام : « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

ويبرأ الإسلام مما لحق بالديانة اليهودية عن طريق التحريف والتزوير من تعصب عنصرى وطائفى فهو دين عام للبشر جميعاً وليس ديناً خاصاً بجماعة معينة كما هو الحال عند اليهود الذين يعتبرون التوراة ديناً يخصهم وحدهم ويعتبرون أنفسهم شعب الله المختار كما أن الاسلام يمتاز على الديانة المسيحية بأنه يعترف بجميع الرسل

والأنبياء وفى طليعتهم موسى وعيسى وهذا ما يجعله أقرب إلى العقل والمنطق من الديانتين اليهودية والمسيحية . فالدين الذى يعترف بجميع الرسل والأنبياء ويعتمد الكتب السماوية التى سبقته ويسوى بين الناس كافة ولا يفرق بينهم إلا بالعلم والإيمان والتقوى هو الدين الذى يقبله العقل السليم والمنطق القويم وليس من العقل والمنطق ومن الغرور والعنجهية والسخف أن تدعى جماعة بشرية معينة بأنها شعب الله المختار وأفضل عند الله من سائر إخوتها فى الإنسانية لكونها من فرع معين مع أن إله الجميع واحد وجميع البشر من أب واحد وأم واحدة ودم واحد والكل من التراب وإليه .

* * *

ومن آيات رحمة الله وفضله هذه النعم الغامرة التى لا تعد ولا تحصى وسخرها لخلقه وعباده من نهار للسعى والعمل وليل للراحة والنوم وأرض مبسوطة ممهدة يسعى الناس فى مناكبها وطرقاتها وكواكب ونجوم وشموس وأقمار تزين صفحة السماء وتبعث الضوء والحرارة والحياة لجميع المخلوقات والكائنات الحية إلى رياح وأمطار وبحار وأنهار ونبات وحيوان وغير ذلك .

والمتأمل المتفكر يدرك أن الإنسان وكل شيء فى هذا الكون معلق بمشيئة الله ورحمته ، فكل كائن حى يستمد وجوده وحياته وسعادته من الله تعالى خالقه وربه فإذا ما قطع الله عنه تيار رزقه ورحمته سقط وهلك شأنه فى ذلك شأن المنزل الذى ينقطع عنه نور الكهرباء ويظلم إذا انقطعت الأسلاك التى تربطه بمولد الكهرباء أو مثل ارتباط المصنوع بصانعه .

* * *

ومما يجدر ذكره أن الله تبارك وتعالى أنزل الأديان السماوية لمصلحة البشر وخيرهم فى الدنيا والآخرة ولم ينزلها لمنفعة يرجوها منهم فهو جل وعلا غنى عن العالمين . فالبشر هم الفقراء المحتاجون إلى الله وليس الله محتاجا إليهم . كما قال سبحانه وتعالى : « يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد » .

* * *

وليست العبادات كلها من صلاة وصوم وزكاة وحج ونحو ذلك غاية فى حد ذاتها إنما هى وسائل وطرق لابد منها لتحقيق أهداف نبيلة وثمار طيبة وهى إيجاد الإنسان الصالح الطيب الخير وواضح أن الغاية لا تتحقق إلا بوسيلتها المناسبة وواسطتها الملائمة كما أن الهدف لايوصل إليه إلا بسلوك الطريق المؤدى إليه ، وهى روابط

تربط الإنسان بالله سبحانه وتعالى وتجعله يدور فى فلكه وإذا ارتبط الإنسان بالله أطاعه واتقاه وامتثل لأمره ونهيه . وهى مادة لتربية الإنسان تربية إلهية سماوية ، وهى مطهر يطهر نفس الإنسان وعقله وقلبه من أفكار السوء ونوازع الشر ونفس الإنسان أمارة بالسوء بطبعها وطبيعتها ، وهى دواء يشفى الإنسان من أمراض النفس كالحسد والحقد والخبث والأثرة والأنانية والجشع والطمع والاستغلال . فالأمراض النفسية تعكر صفو الحياة وتحرم الناس نعمة الهدوء والأمن والسكينة والوئام والسلام وتحول الجو اللطيف النقى العليل إلى جو حار رطب مسموم ملوث ، وتؤدى إلى وقوع المشاكل والمظالم والجرائم والحروب كما يدل على ذلك واقع الحياة قديماً وحديثاً ، ولا غرو فصفاء الحياة الإنسانية ونظافة جوها من صفاء النفوس وطهارة القلوب وسلامة الصدور . وسموم النفوس اللئيمة والقلوب الحاقدة أمر وأدهى من سموم الثعابين والعقارب ، وضحايا الذئاب والثعابين البشرية أكثر من ضحايا الذئاب والثعابين الحيوانية .

لذلك وضع الله تعالى للعبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج حكمة وجعل لها ثمرة . فالحكمة منها كلها وثمرتها جميعها سلوك طريق الخير والحق والفضيلة واجتناب طريق الشر والباطل والرذيلة وإذا لم تتحقق هذه الحكمة السامية الجليلة ولم تثمر ثمارها